

الخطأ الإنساني والتوبة



ورد في مضمون حديث لعلي "أمير المؤمنين (ع) : "ان" اخلق الملائكة من عقل بلا شهوة وخلق الحيوان من شهوة بلا عقل وخلق الإنسان من عقل وشهوة: فمن غالب عقله شهوته صار أفضل من الملائكة ومن غالب شهوته عقله أصبح أ劣 من الحيوان".
إن" كلام من الملك والحيوان لا يملك إلا قوة واحدة.

الأول يملك قوة العقل فقط ولذلك فهو لا يعرف معنى للمعصية والتمرد وقد جاء في القرآن وهو يتحدث عن الملائكة ما يؤكد ذلك في الكثير من الآيات منها قوله تعالى:

(لَا يَعْمُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِنُونَ) (التحريم/ 6)، وأما الحيوان فهو يملك قوة الشهوة وهي تتحكم وتسيطر عليه وتسوقه إلى أغراضه وأمّا الإنسان سيد المخلوقات وخليفة الله فهو يحتضن القوتين معاً في وجوده إنّه ذو قوة ثنائية عقل وشهوة وهاتان القوتان في الإنسان في حالة صراع محتمم فان كانت الغلبة للعقل وأصبح زمام أفعال وتصفات الإنسان تحت قيادته فإن" هذا الإنسان سيكون أفضل وأشرف من الملائكة لأن" الإنسان لم يصل إلى هذه الحالة تغليب العقل على الشهوة إلا بالإرادة والاختيار والمجاهدة المتواصلة بخلاف الملائكة التي لا تجد مقاومة الشهوات وهي تمثل لأوامر الله هذا عندما تكون السيادة للعقل والقيادة للعقل وأما عندما يكون زمام الإنسان بيد الشهوات ويغدو في تصرفاته وأعماله منقاداً لها فإنه بذلك يصبح أ劣 من الحيوان... لماذا؟ لأن" الإنسان يملك القوة الثانية قوة العقل ويتمكن بها من مواجهة الشهوات وينتصر عليها ولكن فشل في ذلك فاستحق مرتبة أ劣 من مرتبة الحيوان ذي القوة الواحدة قوة الشهوة.

ان" هاتين القوتين المودعتين في طبيعة الإنسان واحتدام المصراع بينهما يجعل الإنسان عرضه للوقوع في الخطأ ومجانبه الطريق المرسوم خصوصاً إذا علمنا بالضعف الذي عليه هذا المخلوق.

ان" قوة الشهوات والغرائز وتمكن الضعف من داخل الإنسان وشدة الإغراءات من خارجه في الحياة هي التي تجعل الخطأ أمراً مألوفاً في حياة هذا المخلوق، يقول خاتم الأنبياء: "كل"بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون".

إنَّ الخطأ الذي يقع فيه الإنسان أو الذنب إنما هو عبارة عن مخالفة للقوانين الإلهية المرسومة بالانقياد وراء الأهواء والرغبات والشهوات ويعود حب الدنيا رأس كل خطيئة في الإنسان إنَّ الكذب والغيبة والقتل بغير الحقٍ والسرقة وسوء الخلق والغناة وأكل السحت وعقوق الوالدين والزنى وشرب الخمر وغيرها من عشرات الحالات إنَّما تشكل خروجاً واضحًا مارحاً عن المرسوم في منهجه آلا.

إنَّ العليم الخبير لم يترك هذا الإنسان سدى بدون منهجه لم يتركه لوحده يتخطى في دياجير الظمام ومتاهات الضلال وإنما أوضح له السبيل وأرسل له الرسل وأي خروج على إرادة آلا وإرادة رسوله وأي مخالفة لمنهجه تعد ذنباً.

إنَّ الذنوب التي يرتكبها الإنسان في حياته تتشكل بقعاً سوداء في قلبه حتى إذا ازدادت هذه الذنوب وتراكمت وأصبح بعضها فوق بعض لم يعد الإنسان كما يريده خالقه متناغماً مع أشياء هذا الوجود. إنَّ هذا الوجود سائر ضمن قوانين آلا المحددة وعندما يخرج الإنسان بالذنوب على قوانين آلا وطاعته فإنه سوف يعيش الشقاء والتعاسة والضنك والقلق، جاء في الحديث الشريف: "ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة. إنَّ القلب لي الواقع الخطيئة فما يزال به حتى يغلب عليه فيمصير أعلاه أسفله" وفي حديث آخر "كلما أحده العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحده آلا لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون"، وعن أمير المؤمنين عليٰ (ع): "وإِنَّمَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي خَفْصِ عِيشٍ فَرَّالُ عَنْهُمْ إِلَّا بِذَنْبٍ أَقْتَرُ فُوْرُهُمْ لَأَنَّ آلا لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ" ، وعن الإمام الباقر (ع): "إِنَّمَا قَضَى قَضَاءَ حَتَّمًا: إِلَّا يَنْعَمُ عَلَى عَبْدٍ نَعَمَ فَيُسْلِبُهَا إِيَاهُ حَتَّى تُحَدِّثَ الْعَبْدَ ذَنْبَهُ يَسْتَحِقُ بِذَلِكَ النَّقْمَةَ".

إنَّ الذي يقف وراء أخطاء الإنسان وذنوبه وآثامه هي الأهواء ولذلك نجد الإسلام منهجه آلا الرشيد يحذر من هذه الأهواء وسيطرتها.

يقول القرآن العظيم: (وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس/ 7-10).

ويقول: (وَأَمْمًا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى الدَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّمَا الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات/ 41-40).

وجاء في أحاديث العترة الطاهرة أحاديث عديدة بهذه الصدد منها:

"احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أدعى للرجال من اتباع أهوائهم وحمائدهم".

ومنها: "مَنْ أطاع هَوَاهُ أَعْطَى عَدُوهُ مَنَاهُ".

ومنها: "لَا تَدْعُ النَّفْسَ وَهُوَاهَا إِنَّهَا رَدَاهَا".

ومنها: "إِنْ اطَّعْتَ هُوَاهُكَ أَصْمَكَ وَأَعْمَاكَ".

ومنها: "اتق معاishi آلا في الخلوات فإنَّ الشاهد هو الحاكم".

ومنها: "أشجع الناس مَنْ غَلَبَ هَوَاهُ"

وقال أحد الشعراء:

إنَّ الْهَوَى لَهُ الْهُوَانُ بَعِينِهِ ** إِذَا هُوَيْتَ فَقَدْ لَقِيتَ هُوَانًا

إنَّ الذنوب التي يحذر منها منهجه آلا هي الذنوب بكلٍّ مراحل صدورتها ابتداءً من التصور والرغبة وانتهاءً بالمارسة والفعل. فقد قال أمير المؤمنين (ع): "صوم القلب عن الفكر في الآثام أفضل من صيام البطن عن الطعام". وقال الإمام الجواد (ع): "لَا تَكُنْ وَلِيَاً آلا في العلانية وعدواً له في السر".

ويُنقل لنا الإمام الصادق (ع) عن رسول الله عيسى (ع) إنّه كان يقول: "إنَّ موسى أمركم أن لا تُزِنوا وأنا أُمركم أن لا تُحدثوا أنفسكم بالزنا، فإنَّ من حدث نفسه بالزنا كان كمن أُوقد في بيت مزروع فـأَفْسَدَ التزاويق والدخان وإن لم يحترق البيت".

إنَّ الذنب في صورتها الظاهرة والباطنة قبل ظهورها ذات خطر كبير على حياة الإنسان فرداً كان أو مجتمعاً وقد سقطت أمم عديدة في التاريخ وهوت إلى الحضيض وتراجعت إلى الوراء بسبب الذنب ويفيد ثنا أصدق القائلين في كتابه المبين عن تلك الأُمم البائدة فيقول: (أَهْلَكَنَا هُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) (الدخان/ 37). ويقول: (كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكَنَا هُمْ بِذُنُوبِهِمْ) (الأنفال/ 54).

وإذا كانت الذنوب بهذه المثابه من الخطورة على حياة الفرد والأُمم لزالت التوبة لإعادة الإنسان الحائد الزائف إلى الطريق السوي ليسجم مع أشياء هذا الكون الذي يعيش فيه لينعم بالخير والسعادة واليسير ولهذا شجع الله التوبة لمعالجة ما ينجم عن الذنوب من آثار وخيمة فقد جاء في كتاب الله: (يَمَّا عَبَدَ أَهْلَكَهُ إِنَّ أَسْرَارَ فُؤُلَّا عَلَيْهِمْ لَا تَفْنَدَهُمْ لَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (ال Zimmerman/ 53).

وجاء في أحاديث العترة الطاهرة: "كلٌّ بني آدم خطأء، وخير الخطأئين التوابون"، ويشتد هذا التشجيع والتحث للعودة والتوبة إلى الله في الفرصة الذهبية الممتازة شهر رمضان حيث يقول الرسول الرؤوف الرحيم (ص) في خطبته التاريخية: "وتوبوا إلى الله من ذنوبكم.. فإنَّ الشّقيّ مَنْ حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم".

المصدر: كتاب في مدرسة رمضان